العراق .. وما بعده ، وما قبله ! (3-3)

26-2-2003

وما أحوج أمريكا والعالم إلى حال يقل فيه هذا الرعب الحقيقي والمصطنع ؛ فليس من المعقول معاقبة جميع البشرية بهذه الطريقة من الرعب التي تجاوزت المسلمين ، إلى أذى الأمريكان أنفسهم , وجعلت من عامة الأمريكان هدفاً للساخطين في كل مكان .. وقد قللت هذه الإدارة الأمريكية بهذه الطريقة إمكان أن تجد من يتعاطف معها ، إنها تثير الدنيا ضدها بلا مبرر ، وتحتاج لأصوات العقلاء من مجتمعها ومن خارجه ، ويحتاج المرعوبون من المسلمين المقهورين في كل مكان لمن يقدر مظالمهم ، وإلا فستكون مزيداً من الشقاء على الجميع كما يبدو ، وقد شعر عقلاء أمريكا كغيرهم أن الظلم تنال عقوبته حتى البعيد الذي لم يفكر فيه أو لا يتوقع أنه مشارك في صنعه..

(13)

الأوراق التي قدمت لمؤتمر لندن للمعارضة في منتصف شهر 12 عام 2002م أعطت خطوطاً واضحة للمطلوب فعله مستقبلاً ، وملامح الثقافة التي تريدها أمريكا ، حقوق الأقليات ، التركيز على التصرف في منطقة كركوك "منطقة البترول" , الدين، العلاقات بالخارج ؛ ولكن هناك مؤشرات أخرى تشير إلى أن النظام الحاكم المستقبلي يجب أن يكون مستسلماً استسلاماً مطلقاً لما يلزم أن يقوم به , وأمريكا حائرة كما يبدو من التقارير التي تأتي متضاربة، في صفة المستقبل؛ فالحل الفيدرالي يبدو أقرب الحلول، فهو يضعف الدولة المركزية، ويوهم بأن مشكلة الأكراد قد حلت، ويبقي على إمكانية استخدام هذه الخلافات بين السنة والشيعة ، وبين العرب والكرد ، وبين الكرد والعرب والتركمان ؛ بل هناك خطط استراتيجية تعيد الحديث عن الخلافات القبلية في المنطقة , ودراسات عن

إمكانات هذه التقسيمات في بناء سياسي يقصد به تناول المنطقة عموماً وليس العراق وحده , وهذا فيما عدا التجهيزات العاجلة المتنوعة والتي لا نتحدث عنها بسبب هنا , ويتحدث الصهيوني "بول ويلفتز نائب وزير الدفاع الأمريكي" عن عراق ديموقراطي ، يكون بديلاً عن أنظمة هيمنت على المنطقة وعلاقاتها في السابق , وتذكر إحدى المجلات الإستراتيجية فكرة توحيد العراق والأردن ، ونقل الفلسطينيين أو أغلبهم لهذا الكيان الفيدرالي الجديد، وأن هذا مشروع سبق أن كتبه "بول لفتز - المخطط العسكري لوزارة الدفاع" ، وتشيني نائب الرئيس ، ونشرت هذا "يديعوت أحرنوت" في منتصف يوليو الماضي ، وشارك في لقاء دراسة الأمر/الحسن - ولي عهد الأردن السابق , وبعض الشخصيات العراقية السنية المعروفة في لندن , وفيه أنه قد تفصل المناطق السنية الوسطى , ويكون بينها فيدرالية مع الأردن ، ومركز الشيعة في الجنوب , والأكراد في الشمال يكون بينهم فيدرالية واحدة ، ومن هذه التوقعات أن الاضطرابات التي يمكن أن تحدث قد تبرر تنفيذ هذه الخطط باعتبارها حدثت على الأرض دون قصد أمريكي مسبق , أو بطلب من سنة العراق يوجهونه لملك الأردن الحالي ويطلبون ضم مناطقهم لحكمه , أو بوجود نفوذ لبقية العائلة الهاشمية العراقية ، وتقيم علاقة وحدة أو فيدرالية مع الأردن , ويتحدث الإسرائيليون كثيراً عن فوائد هذه الفكرة. هل العرب ضد رأي العراقيين؟.

يرى بعض المراقبين فرقاً بين الموقف العراقي الشعبي , وبين جماهير العرب والمسلمين ، وهو أن العراقيين في الداخل والخارج مع ضرب العراق ، وتدمير نظامه، وتغيير الواقع الذي صنعه صدام بغيره ، ويرون أن الحرب ستكون محطة إنقاذ من النظام القاهر لمدة ربع قرن ، وأن الذين يشفقون على العراق

يجب أن يتحولوا لموقع الفكرة المضادة التي لم يقدروها , وأن يناصروا من يخلصهم من صدام ووحشيته بأي طريقة ، ويلومون العرب والمسلمين الذين يرون في الحرب شراً أكبر, وهي مشاعر يقدرها من يستشعر سنوات الإرهاب والحروب والفقر والجوع التي سببها هذا الحكم المنفلت ؛ غير أن المعارضين من العرب والمسلمين وأنصار الحرية في العالم لا يرون فيما يستقبل العراقيين من نفوذ إلا تعميم للإرهاب ، والاستغلال وإخضاع الدول والشعوب لإمبراطورية واحدة ، تؤيد الإرهاب الصهيوني وكل إرهاب يحقق رغباتها ، فإرهاب صدام وسلاحه الكيماوي كان مثار تأييد ومحبة وتشجيع ، وقدم له رامسفيلد نفسه "الخصم القائم" التأييد على ما يقوم به ضد شعبه وخصومه الإيرانيين عام 1983, وتؤيد أمريكا السلوك النازي العنصري الصهيوني ، ما دام الضحايا هم عرب مسلمون , ويعارضون مستعمرتها وقاعدتها العسكرية في المنطقة "إسرائيل" ؛ فهي بالنسبة لهم خنجر في قلب المسلمين والعرب ، يقوم بدوره بتميز ، وتثعب دماء العرب منذ أكثر من نصف قرن ، وتلك سمة محبوبة للإمبراطوريات ، تبقي الضحايا كثيرة ومشلولة ، ورغم ذلك فهي دائماً موعودة بحل ما في يوم ما!. فمهما صنع شارون وسابقوه ولاحقوه ، من إرهاب فإنه إرهاب مقدس محبوب ، يحقق نفوذ الإمبراطورية في عالم الضعفاء ، ويحقق الأعمال القذرة التي لا تريد الإمبراطوريات أن تمارسها بنفسها "كما يرى المسيري". - كما حقق حلم أوروبا في قذف اليهود خارجها ، ومساندتهم ليبقوا بعيداً عنها ، وهي القارة المتعصبة العنصرية التي لقي فيها اليهود كل ضروب الإرهاب والنازية واحدة من المراحل، وآخر الحلول قيام حارة لليهود بعيدة عن أوروبا ، ولكن النحس لم ينته بعد في رأيهم ,

ودور القيام بالأعمال القذرة للإمبراطورية - وهو ما يقوم به شارون بامتياز , ولم تكن أوروبا وأمريكا تحسب أن تحدث سلبيات كبيرة لإرهابها المقدس في فلسطين ، حتى بدأ الدم يسيل في عواصمها , وينذر العالم كله مستقبلاً بالمزيد ؛ فهل ممارسة إرهاب عسكري جديد في العراق سيفتح أيضاً بوابة للجحيم أخرى؟ لا يدري أحد، ولكن هذه الإمبراطورية ترمي نفسها والعالم معها في ظلام المجهول وستحتمي فيما بعد في "جزيرة بعيدة مغطاة" بنظام دفاع خاص، لكن هذه الواقيات لا تجدها أوروبا ولا غيرها، ولا تقي مصالحها..

(14)

عندما انتهت فترة وزير الخارجية الأمريكي "وارن كريستوفر" في حكومة كلينتون الأولى ، سأله أحدهم عن أهم ما لا حظه في عمله في الخارجية فقال: أهم ما لاحظته أن أمريكا لا تعرف كم هي قوية! ولا تعرف كيف يراها الآخرون" , لعل كريستوفر كان يتصرف كوزير خارجية يقابل وزراء خارجية آخرين في نفس المناصب ، ولكنه فوجئ بأن وزراء الخارجية الآخرين يتهاوون عنده بخضوع وسلوك موظفي مكتبه الصغار , إنه سلوك لم يعرفه من قبل ، وهو الذي ولد وعاش على ثقافة الرجال الأحرار ، الرجال المتساوين ، يصطف بوش الأب في صف الشراء كأي مشتر آخر ، بلا طبقية على الأقل في الجوانب الشكلية ، ويحاول عدد من السياسيين والمؤرخين وضع قواعد ودليل سلوك للإمبراطوريات ، ولكنهم يفاجئون باختلاف طريقة العمل ؛ فالذين درسوا ثقافة الإمبراطورية البريطانية لم يستطيعوا التنسيق بينها وبين سلوك وثقافة الإمبراطورية الأمريكية ؛ فقد كانت الإمبراطورية البريطانية من أقل الإمبراطوريات الأوروبية تسلحاً رغم اتساع قوتها ومستعمراتها حول العالم ، واعتمدت

الهجرة والتوازنات ، والمصالحات حول شواطئ العالم ؛ أما هذه الإمبراطورية فهي تكرس بعض سلوك الإمبراطورية وتستخدم الرعب ، والقوة والتوسع الفوقي ، ولا تستطيع مجاورة الشعوب , والتي هي بدورها نمت ثقافة عنف مضاد للعنف الأمريكي , والإمبراطوريات عادة - وقبل هذه - لا تقبل الحلفاء ولا الشركاء ولا الأصدقاء ؛ بل تتعامل مع الأتباع ، وهم أصحاب الصلة والصداقة ، وهم الذين يطلق عليهم وصف التفهم والمودة والوعي والشراكة ؛ فهم الذين يفهمون حدودهم ، ويدركون معنى كلمة صداقة , والتي لا تعني "مفهوم الصداقة المعروفة في اللغة" ؛ بل هي صداقة المقهور للإمبراطور , وقصة خروج جريدة "لوموند الفرنسية" في اليوم الثاني بعد ضرب نيويورك , بمقالة لرئيس التحرير :"كلنا أمريكان" , وليخرج هذه المقالات في كتاب لاحق مع مجموع مقالاته , ويضع بعد العنوان علامة استفهام "؟" , يدل على تراجع كبير حتى ممن تبنوا المناصرة للأسد الجريح ، وبدلاً من التعاطف معه زادت وحشيته ليخرج ويتجاوز كل سلوك الوحوش ، ويرعب الجميع ، ويأمل في تفرد في كون خاص له .

(15)

في واشنطن أكثر من "خمسة عشر مجموعة" تدرس مستقبل العراق ، كما ذكرت واشنطن بوست يوم 2 ديسمبر 2002 , وهذه المجموعات ، لم تذكر صراحة , ولم تنقل عن الحكومة الحديث عن مستقبل البترول العراقي ، والحكومة حريصة أن تبعد الأعين والألسن عن الحديث عن البترول ؛ لأن الحديث عن هذا في هذه الظروف سوف يسقط شرعية الغزو ، والذي كانت حجته سلاح الدمار الشامل ، وسوف يصرف الأعين باتجاه الاستعمار الشامل , وهناك حاجة للمسلمين أن يكون لهم

استراتيجيتهم الخاصة لمواجهة الأوضاع السيئة التي يعانونها , وكل مؤشرات الفطرة والخبرة البشرية تبشر بأن ذلك ممكن . وضعت الحكومة الغربية - كما يبدو من كلام جيمس روبن ، ودانيال بايبز , وجماعة يهود أمريكا وإسرائيل - أن من أخطر ما يمكن أن يستمر بقاؤه أو يحدث في المستقبل هو أن يتحسن وضع العرب الاقتصادي ، ولهذا فإن إفقار بلاد المسلمين مستقبلاً هدف إستراتيجي تسلم بصحته عدد كبير من الدوائر ، لأن تحسن الاقتصاد يعني تحسن ظروف المجتمع وتعليمه ، ويعني وجود مال للمؤسسات الخيرية ، ويعني سهولة المعارضة ، ويعني الإرهاب – كما يرون- ويعني أن يستطيع الفلسطينيون الإبقاء على مقاومة الاحتلال .. وكل هذه مصائب لدى المخططين اليهود، وينصح روبن - كما سبق نشره في مقال سابق - على أنه يجب الحفاظ على العالم الإسلامي فقيراً وذليلاً ، لأن المسلمين إن تحرروا أو شبعوا قاوموا الغرب ، فغاية هؤلاء الحفاظ على المسلمين فقراء مقهورين مسجونين . وتبدو ملامح مداولة في العلاقات ومسيرة التنمية في المنطقة ؛ فالدول العربية التي حققت وضعاً تنموياً معقولاً خلال السنوات الأخيرة , وتحسنت فيها بعض الخدمات والأوضاع الاقتصادية لعامة الناس ؛ سوف تقلب مرة أخرى لدوائر الفقر والخوف والصراعات ، وتقرب دول أخرى , ويفتح لها باب التبرعات والعمل والتجارة مؤقتاً ، مثل اليمن ، التي سوف يحفر فيها عام 2003 ما مجمله 130 بئراً بترولية جديدة يزيد إنتاجها عن نصف مليون برميل يومياً ، وعراق ما بعد صدام ، بحيث يمكن الحفاظ على التوازنات الإقليمية القائمة ، مجتمع عربي فقير، ومتخاصم ، متقاتل لايفيق من الفاقة والخلاف والصراع ؛ بحيث يبقى مستقبلاً جائعاً خائفاً ذليلاً . وبترول

العراق القادم لن ينال منه العراقيون إلا النزر اليسير؛ فهناك مشاريع إعادة الإعمار الأمريكية بعد التدمير الجديد , التالي للقديم إن تم, وتكاليف الحرب إن قامت ما بين 25 مليار دولار إلى مائة مليار، وسوف تدفع هذه التكاليف العراق من بترولها، وجيرانها الذي سيمن عليهم بالإنقاذ من الخطر , وهناك عقود مع شركات موعودة قد لا تحقق الأرباح إلا بعد خمس سنوات من بدء الإنتاج كما يرى::" دانيال يرجن", وسوف ترفع الحرب السعر حتى ما بعد الهيمنة عليه، لتقارب تكلفته 20 دولاراً ، بدلاً أن يسار في السعر المعقول حالياً ، والذي يمكن تطوير آبار البترول لتقدمه بسعر 10 دولارات "واشنطن بوست - 8 ديسمبر 2002"، ومن هنا ندرك أهمية وجود عوامل عديدة في دوافع هذه المواجهات ، وحروب الحاضر والمستقبل ، وإن كانت هذه العوامل على عدة مستويات في الأهمية والتأثير، بعضها يكاد أن يكون رافداً إعلامياً وللشحذ الجماهيري .. ويرى متابعون لأولويات الموقف الأمريكي "عقيدة بوش" تجاه هذا العراق وغيره أنها مواجهة حاسمة ومرعبة لكل من يبدي الممانعة للقبول بطلبات الإمبراطورية الأمريكية ، واستخدام الإرهاب والترهيب للقضاء على الخصوم ، ولحث التابعين المترددين , وعدم تقدير أي مؤسسة دولية ، أو تاريخ مصالح ، أو استثارة أديان ، وأن الذهاب للغاية والمراد دون مراعاة للطريقة .. هو ما تمليه المرحلة القادمة ، حتى لا يطمع أحد في عدل ، ولا في مجاملة ، ولا في مبادئ دولية موهمة , ولكن هذه السياسة تثير من الأحقاد والمواجهات أكثر مما تجلب من المصالح ، وما أحوج أمريكا والعالم إلى حال يقل فيه هذا الرعب الحقيقي والمصطنع ؛ فليس من المعقول معاقبة جميع البشرية بهذه الطريقة من الرعب التي تجاوزت المسلمين ، إلى أذى

الأمريكان أنفسهم , وجعلت من عامة الأمريكان هدفاً للساخطين في كل مكان .. وقد قللت هذه الإدارة الأمريكية بهذه الطريقة إمكان أن تجد من يتعاطف معها ، إنها تثير الدنيا ضدها بلا مبرر ، وتحتاج لأصوات العقلاء من مجتمعها ومن خارجه ، ويحتاج المرعوبون من المسلمين المقهورين في كل مكان لمن يقدر مظالمهم ، وإلا فستكون مزيداً من الشقاء على الجميع كما يبدو ، وقد شعر عقلاء أمريكا كغيرهم أن الظلم تنال عقوبته حتى البعيد الذي لم يفكر فيه أو لا يتوقع أنه مشارك في صنعه..

للعودة للأعلى